الفصل الخامس
تـراث الخـزر

تحدثنا فى الفصل السابق عن سقوط إمبراطورية الخزر، وننتقل الآن إلى تراث الخزر ونبدأ بخروجهم من موطنهم. والشواهد التى سقناها فى الصفحات الماضية تباين الرأى التقليدى الذى قال به مؤرخو القرن التاسع عشر، فهى تدل على أن الخزر بعد هزيمتهم على يد الروس سنة ٩٦٥م فقدوا إمبراطوريتهم، ولكنهم احتفظوا باستقلالهم فى حدود ضيقة، كما احتفظوا بعقيدتهم اليهودية حتى مضى شطر ليس بالقليل من القرن الثالث عشر الميلادى، بل نحن نستطيع أن نقول إنهم فيما يبدو قد ارتدوا إلى حد ما إلى ما درجوا عليه من سلب ونهب. وراحوا فى إطار مملكتهم منقوصة الأطراف يشنون حربا دفاعية فعالة على جميع أعدائهم حتى منتصف القرن الثالث عشر، وهنالك سقطوا صرعى الغزو المغولى الكبير الذى قاده جنكيز خان، ومع ذلك فإنهم قاوموا مقاومة المستيئس إلى أن سلم جميع جيرانهم، واستوعبت القبيلة الذهبية الفريق الأكبر من السكان الخزر واستقرت هذه القبيلة فى قلب إمبراطوريتهم. على أن الخزر استطاعوا قبل الفتح المغولى الجائح

وبعده أن يرسلوا شعبًا كثيرة منهم إلى الأراضى الصقلبية غير المفتوحة، وأقاموا فى النهاية المراكز اليهودية الكبرى فى أوربا الشرقية.

وفى أوربا الشرقية هذه نجد مهد العدد الأكبر من الشعب اليهودى الحديث الذى تفوق فى العدد وسيطر فى ميدان الثقافة.

والحق أن هذه الشعب قد انشعبت قبل تدمير دولة الخزر على يد المغول بوقت طويل. وكان هؤلاء يشبهون من حيث السلالة القبائل السامية على مياه الأردن، ذلك أن الفريقين عاشا فى مفترق الطرق التجارية الكبرى التى تربط الشرق بالغرب، ويتقاطع فيها الشمال مع الجنوب. وهذه الظروف جنحت بهم إلى أن يصبحوا شعوبًا من التجار والرحالة المغامرين، أو قل أناسًا عالميين لا أصول لهم. على أن عقيدتهم المنطوية على نفسها نمت فيهم النزعة إلى التماسك وإقامة مجتمعاتهم الخاصة فى أماكن عبادتهم الخاصة وفى مدارسهم وأحيائهم السكنية اليهودية فى أى بلد حلوا فيه أو قطر وفدوا إليه. وكانت تغذى هذه النزعة وهذا المزاج النادر من شهوة التجول والعقلية المنطوية على الحلول فى أحياء خاصة باليهود - آمالٌ فى عودة المسيح، وعزة تنبعث من زعمهم أنهم الشعب المختار، وقد اشترك فى هذا كله الإسرائيليون الأقدمون وخزر القرون الوسطى، وهؤلاء قد رفعوا نسبهم إلى يافث وليس إلى سام.

وهذا التطور يمثله خير تمثيل ما يحق لنا أن نسميه تشتت الخزر فى هنغاريا. وقد بينا من قبل أن عدة قبائل خزرية تعرف بالقبر قد انضمت إلى المجر قبل تدمير دولة الخزر بوقت طويل، وهاجرت إلى هنغاريا. والأمثلة على ذلك كثيرة، منها أن دوق تاكسونى الهنغارى قد دعا فى القرن العاشر الميلادى موجة أخرى من المهاجرين الخزر للاستقرار فى أملاكه. وبعد ذلك بقرنين نجد ذكرًا لجنود على اليهودية يحاربون فى الجيش الهنغارى فى دلماشيا سنة ١١٥٤م. ولا شك أن الخزر اليهود لعبوا دورًا خطيرًا فى التاريخ الهنغارى الأول، ولم تكن هنغاريا تتحدث بلسانين فحسب، بل كان لها أيضًا عاهلان يتوليان أمرها على النمط الخزرى. ذلك أن ملكها كان يشاركه فى الحكم قائد جيشه. وظل هذا النظام قائمًا حتى اعتنق سان استيفان مذهب الروم الكاثوليك. صحيح أن هذا الحادث قضى على سنة العاهلين ولكن الأثر الخزرى بدا واضحًا فى وثيقة الثور الذهبى الهنغارية التى تشبه الوثيقة العظمى عند الإنجليز، وهى الوثيقة التى أصدرها الملك أندريه الثانى الهنغارى سنة ١٢٢٢م، فقد كان القيم على خزانة المال الملكية الحاجب الكونت «تكا» وهو يهودى من أصل خزرى كان من كبار أصحاب الأراضى، ومن رجال المال والدبلوماسيين العباقرة. وهذا يذكرنا باليهودى الأندلسى حسداى بن شربوت الذى كان يقوم بهذه المهمة نفسها لخليفة قرطبة الأموى.

ونخرج من هذا بأن غلبة العنصر الخزرى اجتماعيًا وعددًا فى هنغاريا أيام القرون الوسطى لها أسانيد جيدة تدعمها. وقد يبدو من ذلك أن هنغاريا تعد حالة خاصة فيما يختص بالعلاقة التى كانت تربط بينها وبين الخزر فى عصر متقدم، على أن الواقع هو أن تدفق الخزر على هنغاريا كان مجرد جانب من حشود الهجرة من قيافى آسيا وأوربا إلى الغرب، وكان ذلك هو حال الأعداد الكبيرة من البشناق الذين طاردوا المجر من نهر الدون حتى عبروا جبال الكربات، ثم اضطروا إلى الاستئذان فى النزول بالأرض الهنغارية، ثم جاء دورهم أيضًا فطاردهم القومان. ولقى القومان المصير نفسه حين فروا بعد قرن من وجه المغول وسمح الملك بيلا الهنغارى لأربعين ألفًا منهم بالالتجاء إليه هم وجواريهم.

وفى الأيام التى استتب فيها السلام إلى حد ما لم تكن هذه الهجرة العامة التى قام بها سكان آسيا وأوربا سوى انتقال من مكان إلى مكان، ولكنها أصبحت فى أوقات أخرى تيهًا وشتاتاً.. ذلك أن نتائج الغزو المغولى كانت زلزالاً أعقبه انهيار. فقد عمد جنكيز خان إلى ذبح سكان مدن بأسرها حتى ينذر من تسول له نفسه بمقاومة هذا الغزو، واتخذ الأسرى درينة تحمى مقدمة جيشه، ودمر شبكة الرى فى دلتا الفولجا فحرم الخزر عماد معاشهم، وأحال القيافى الخصيبة أرضًا قاحلة جرداء.

وجاء الموت الأسود سنة ١٣٤٧ - ١٣٤٨ فزاد من خراب قلب الخزر ما بين القوقاز والدون والفولجا حتى أقفر من ناسه.

ولم يقتصر الأمر على خراب بلاد الخزر، بل تعداه إلى تخريب بلاد البلغار على الفولجا هم وآخر معاقل اللان والقومان فى القوقاز، والإمارات الروسية الجنوبية بما فى ذلك كييف. وزادت الحالة سوءا، والفوضى شدة، فى أثناء الفترة التى تفككت فيها القبيلة الذهبية منذ القرن الرابع عشر الميلادى، فأصبحت الهجرة فى معظم الفيافى الأوربية هى المنفذ الوحيد أمام السكان الذين يريدون تأمين حياتهم ومعاشهم. وكان خروج الخزر من مواطنهم جزءا من هذه الصورة العامة.

وقد سبق هذا إقامة مستوطنات ومحلات خزرية فى أماكن شتى فى أوكرانيا وجنوبى روسيا. وكان فى كييف جماعة يهودية زاهرة قبل انتزاع الروس هذه المدينة من الخزر وبعده. وشاهد ذلك أننا نجد عددا وافرا من أسماء الأماكن القديمة فى أوكرانيا وبولنده أصلها خزرى. ولعل هذه الأماكن كانت مضارب موقوتة لجماعات خزرية يهودية اتخذتها فى طريقها الطويل إلى الغرب. وثمة أسماء أماكن من هذا القبيل من جبال الكربات وترا، وفى الولايات الشرقية للنمسا.

وعلى حين كان الطريق الرئيسى للخروج الخزرى يسير ناحية الغرب فإن بعض الجماعات قد تركها الخزر المهاجرون خلفهم فى

القرم والقوقاز على الأغلب، وتكونت من هذه الجماعات إمارات يهودية محصورة ظلت قائمة إلى العصور الحديثة، وهناك شواهد كثيرة على هذه الإمارات.

وثمة أثر آخر من آثار أمة الخزر يتمثل فى «يهود الجبال» فى الشمال الشرقى للقوقاز. ويقال: إن عددهم قرابة ثمانية آلاف يعيشون فى جوار البقية الباقية من القبائل القديمة، قبائل القفجاق والأوغوز.

وفى القرم بقيت إمارات خزرية محصورة أخرى، ولا شك أن هذا وقع أيضا فى أماكن أخرى كانت تابعة للإمبراطورية الخزرية. وفى الأقاليم التى وجد فيها المهاجرون اليهود من بلاد الخزر وطناً جديداً لهم يأمنون فيه على أنفسهم، ولم تبدأ أهميتها السياسية إلا فى نهاية الألف الأول من ميلاد المسيح.

وحوالى سنة ٩٦٢م أقامت قبائل صقلبية حلفاً بقيادة أقوى قبيلة فيها وهى قبيلة البولان التى أصبحت نواة الدولة البولندية، ونتبين من هذا أن البولنديين علا شانهم فى الوقت الذى اضمحل فيه الخزر (دمرت سركل ٩٦٥م). ومما له مغزى أن اليهود لعبوا دورًا هامًا فى إحدى الأساطير البولندية الأولى حول إقامة مملكة بولندة.

فقد روت هذه الأسطورة أن هذا الحلف من القبائل استقر على انتخاب ملك يحكمه فاختار يهوديًا. ولعله كان تاجرًا خزريًا

متعلمًا، وهذا يدلنا على مبلغ الاحترام الذى كان ينعم به اليهود. وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح فإن لدينا دلائل وافرة على أن المهاجرين اليهود من بلاد الخزر كانوا موضع تقدير يعرف الناس فضلهم فى اقتصاد البلاد وفى ممارسة الحكم. وقد كان البولنديون فى عهد أسرة بياست هم وجيرانهم الليتوانيون من أهل البلطيق يمدون حدودهم بسرعة، كما كانوا فى حاجة ماسة إلى مهاجرين يعمرون أراضيهم ويقيمون حضارة مدنية. ومن ثم شجعوا أولاً المهاجرين من الفلاحين الألمان، والمواطنين الأحرار وأرباب الحرف بما فى ذلك الأرمن والصقالبة الجنوبيون والخزر.

ولم يكن هؤلاء الخزر جميعًا قد هاجروا بمحض إرادتهم، إذ كان بينهم أعداد كبيرة من الأسرى مثل تلك القرم الذين حملوا حملاً على زراعة ضياع أصحاب الأراضى الليتوانيين والبولنديين فى الولايات الجنوبية المفتوحة. ولكن حدث فى القرن الخامس عشر الميلادى أن تقدم الأتراك العثمانيون الذين فتحوا بوزنطة شمالاً فنقل أصحاب الأراضى الناس من ضياعهم القائمة فى مناطق الحدود إلى داخل البلاد.

وكان من بين هؤلاء السكان فريق قوى من القرائين، وهى الفرقة الأصولية اليهودية التى أنكرت أقوال الربانيين. وجاء فى رواية بقيت بين القرائين حتى العصور الحديثة، أن أجدادهم قد نقلهم إلى بولندة الأمير الليتوانى المحارب العظيم فيتاوتس فى نهاية

القرن الرابع عشر، إذ وقعوا فى أسره وهم من أهل القرم. ويؤيد هذه الرواية ما حدث من أن فيتولد قد منح سنة ١٣٨٨م يهود تروكى وثيقة حقوق، وقد وجد الرحالة الفرنسى «ده لانوا» عددا كبيرا من اليهود يتكلمون لغة مختلفة عن لغة الألمان والأهلين وكانت هذه اللغة ولا تزال لهجة تركية هى بين اللغات الحية أقرب ما تكون إلى اللغة القومانية التى كان يتحدث بها من قبل فى الأراضى الخزرية أيام القبيلة الذهبية، وهذه اللغة لا تزال هى لغة حديث جماعات اليهود القرائين فى تروكى وفلنه ولو تزلك.. إلخ. ويزعم القراءون أيضًا أنه كان لهم قبل الطاعون الكبير الذى تفشى عام ١٧١٠م. حوالى اثنتين وثلاثين أو سبع وثلاثين جماعة فى بولنده وليتوانيا.

وهم يسمون لهجتهم القديمة: «لغة كدر». ويقول عالم من أئمة العلماء فى الدراسات التركية: إن القرائين من حيث لغتهم هم أنقى من يمثلون فى الوقت الحاضر الخزر القدماء.

اتخذت المملكة البولندية منذ أوائل نشأتها فى عهد أسرة بياست اتجاهاً غربيًا جازماً مع اعتناقها العقيدة الرومية الكاثوليكية، ولكنها كانت - إذا قيست بجاراتها فى الغرب - بلادا متخلفة اقتصاديًا وثقافيًا، ومن ثم انتهجت سياسة استمالة المهاجرين الألمان من الغرب، والأرمن والخزر اليهود من الشرق، وشجعتهم بكل وسيلة على مشاركتها فى مشروعاتها بما فى ذلك مواثيق ملكية تفصل واجباتهم وحقوقهم الخاصة.

وفى الميثاق - الذى أصدره بولسيلاف الورع سنة ١٣٦٤. وأيده كازيمير الأكبر سنة ١٣٣٤م - مُنح اليهود حق الاحتفاظ بمعابدهم والانخراط فى سلك أية حرفة أو وظيفة يختارونها. وفى عهد الملك ستيفن باتورى (١٥٧٥ - ١٥٨٦م) مُنح اليهود برلماناً خاصًا بهم، كان يجتمع مرتين فى العام ويدخل فى اختصاصه جباية الضرائب من إخوانهم فى الدين. وبعد تدمير بلاد الخزر دخل الشعب اليهودى الخزرى مرحلة جديدة من مراحل تاريخهم.

وثمة مثل بارز على الحالة المتميزة التى كان ينعم بها اليهود يتمثل فى مرسوم بابوى صدر فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، والراجح أن الذى أصدره هو البابا كليمنت الرابع، وقد وجهه إلى أمير بولندى لم يسمّه، وجاء فى هذا المرسوم أن السلطات الرومانية تعلم بوجود عدد كبير من معابد اليهود فى عدة مدن بولندية، بل لقد بلغ عددها ما لا يقل عن خمسة معابد فى مدينة واحدة. وهذه المعابد تفوق فى زخرفها وفخامتها الكنائس المسيحية.

***

ونستدل من مثل هذه الوثائق على أنه كان يوجد فى وقت يكاد يكون معاصراً للغزو المغولى لبلاد الخزر - عدد كبير من الخزر يعيشون فى بولندة.

وليس بين أيدينا معلومات موثوق بها نهتدى بها إلى هذا العدد، ولكننا إذا تذكرنا ماروته المصادر العربية عن وجود جيوش خزرية تبلغ عدتها ٣٠٠,٠٠٠ مقاتل استطعنا أن نقدر مجموع عدد سكان الخزر بنصف مليون نفس على الأقل، وقد قدر ابن فضلان عدد خيام بلغار الفولجا بخمسين ألف خيمة وهذا يدل على أن عدد السكان ما بين ثلاثمائة ألف نفس وأربعمائة ألف نفس. على أن عدد اليهود فى المملكة البولندية الليتوانية أيام القرن السابع عشر قدره المؤرخون المحدثون بخمسمائة ألف نفس.

ونستطيع أن نقول: إن معظم من اعتنقوا اليهودية فى القرون الوسطى كانوا من الخزر، وقد هاجر جانب كبير منهم إلى بولندة وليتوانيا وهنغاريا والبلقان، حيث أقاموا الجماعة اليهودية الشرقية التى أصبحت بدورها الأغلبية الغالبة من الشعب اليهودى فى العالم.

وحسبنا هذا عن عدد اليهود الخزر، ثم نتساءل عن تكوينهم الاجتماعى وتركيب الجماعة الخزرية المهاجرة.

وأول انطباع نخرج به هو التشابه الغريب بين بعض المناصب الممتازة التى شغلها اليهود الخزر فى هنغاريا وبين المناصب التى شغلوها فى بولنده فى تلك الأيام الأولى. إذ نجد أن المصادر الهنغارية والمصادر البولندية تشير إلى يهود يعملون ضاربى نقود، وقوّاماً على الخزانة الملكية ومهيمنين على احتكار الملح، وجباة ضرائب،

وصيارفة يقرضون الناس المال. وهذا التشابه يوحى بأن أصل هذه الجماعات المهاجرة مشترك.

والسجلات القديمة تبين الدور الذى لعبه اليهود والمهاجرون فى الحياة الاقتصادية النامية فى الدولتين جميعاً. ولا يدهشنا هذا الدور إذا تذكرنا أن التجارة الأجنبية وجباية المكوس كانتا أهم موارد الخزر فى الماضى، ومن ثم فإنه كان للخزر تجارب فى هذا الشأن كان يفتقر إليها من أضافوها، والنقود التى ضربت فى القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين بنقوش هولندية تقوم على الحروف العبرية ما هى إلا آثار عجيبة لنشاط هؤلاء الخزر.

على أنا نجد تبايناً بين يهود شرقى أوربا ويهود غربيها، ذلك أن المال والتجارة لم يكونا هما الميدانين الوحيدين لنشاط اليهود الشرقيين، ذلك أن كثيرا من المهاجرين الأغنياء أصبحوا ملاك أراض فى بولنده مثل الكونت تكا فى هنغاريا. وكانت ملكية اليهود للأراضى تشمل قرية بأسرها من الفلاحين اليهود كما حدث فى جوار برسلاو قبل سنة ١٢٠٣، ولا شك أنه كانت توجد أعداد كبيرة من الفلاحين الخزر فى الأيام الأولى كما يستدل من أسماء الأماكن الخزرية القديمة.

ولكن الفلاحة لم تكن هى المستقبل المقدور للجماعة اليهودية، ولهذا عدة أسباب: هى أن قيام الاقطاع فى القرن الرابع عشر الميلادى

قد أحال الفلاحين فى بولندة رويدا رويدا إلى عبيد أرض لا يسمح لهم بمغادرة قراهم. ثم حدث فى الوقت نفسه أن تأثر البرلمان البولندى بسلطان رجال الكنيسة وأرباب الإقطاع فحرم على اليهود سنة ١٤٩٦ ملكية الأراضى الزراعية.

على أن تحول الشعب اليهودى الخزرى إلى الشعب البولندى اليهودى لم يحدث أى قطع عنيف للصلة بالماضى أو فقد للشخصية المعهودة، ذلك أنه تم تدريجًا واحتفظ ببعض التقاليد الخزرية الحيوية فى حياتهم التى تقوم على التآلف فى وطنهم الجديد. وقد تحقق هذا فى معظم الأحوال لقيام بناء اجتماعى، أو أسلوب فى الحياة لا نجده فى أى مكان آخر تفرق فيه اليهود فى هذا العالم، ونعنى به البلدة اليهودية الصغيرة التى تعرف باللهجة اليدية اليهودية باسم «شتتل».

ويجب ألا نخلط بين الاشتتل وبين الحى اليهودى «الغيتو» ذلك أن الحى اليهودى هو شارع أو حى يجبر اليهود على العيش فيه بمعزل فى مدينة غير يهودية.

على أن الاشتتل كان نوعاً من المستوطنات لم يكن لها وجود إلا فى بولندة وليتوانيا فحسب، وليس لها وجود فى أى ناحية أخرى من العالم، وهو بلدة ريفية مكتفية بذاتها، سكانها كلهم أوجلهم من اليهود.

والظاهر أن الوظيفة الاقتصادية والاجتماعية لهذه التجمعات شبه الريفية وشبه الحضرية كانت متشابهة فى القطرين، وقد كانت فى بلاد الخزر، ثم فى بولندة من بعد، عبارة عن شبكة من المراكز التجارية أو الأسواق تتوسط بين حاجات المدن الكبيرة وحاجات الريف.

وقد أصبحت حرف بذاتها حكرًا على يهود بولندة، وكانت فرقة منها تتاجر فى الخشب وأخرى فى النقل.

وكان من الحرف التى تخصص فيها اليهود إدارة الخانات ومطاحن الدقيق والتجارة فى الفراء.

والرداء التقليدى ليهود بولندة أصله شرقى لا تخطئه العين. ولا ننسى أن طعام البولنديين الأثير هو السمك، وثمة مثل شائع يقول (إنه إذا غاب السمك فلا قيام ليوم السبت) ولا شك أن هذا يرجع بنا إلى الذكريات البعيدة للحياة على بحر الخزر حيث كان السمك غذاءً ثابتاً.

***

وكانت الحياة فى الاشتتل تقترن بتمجيد رومانتيكى للأدب اليهودى والمأثورات الشعبية يبلغ حد الهوس. ومن ذلك ما نقرؤه فى استعراض حديث للعادات المرعية فيه والأسلوب المرح الذى يُحيى به السكان يوم السبت:

إن المرء مهما كان شانه يسعى إلى بلوغ داره فى الوقت المعلوم ليقيم يوم السبت مع أسرته. فالبانع المتجول يرحل من قرية إلى قرية. والخياط المتجول والحذاء والاسكاف والتجار فى سفراتهم يدبرون العودة ويندفعون ويسارعون محاولين بلوغ دارهم قبل غروب الشمس من مساء الجمعة.